

القسم الأول

الفصل الأول:

عُنَيَّة

لا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَتَى وُلِدَ سَلِيمَانُ الْعَلِيَانُ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ. ومع هذا فلا بد أنه ولد في الفترة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى أو بعدها بسنة أو تزيد قليلا. ولم يكن من المعهود في الجزيرة العربية إلى وقت قريب أن يُعْنَى أَحَدٌ بِتَسْجِيلِ تَوَارِيخِ ولادة الأطفال. ذلك أن الناس لم تكن ترى أهميةً كبيرةً لتحديد هذا التاريخ.

وإذا أراد أَحَدٌ أَنْ يَعْرِفَ سَنَّهُ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ، وذلك بعد أن يتقدَّم به العُمَرُ، فَيُمْكِنُهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى كِبَارِ السَّنِّ فِي قَرْيَتِهِ وَيَسْأَلَهُمْ عَنْ تَارِيخِ مِيلَادِهِ. وعندها ربما يَتَذَكَّرُ هَؤُلَاءِ، مَثَلًا، أَنَّ ولادته كانت في ليلة ممطرة أغرق فيها السيلُ الغنمَ. وربما يتذكرون، من بعد، متى كانت تلك السنة، ثم يحاولون تحديد الشهر الذي يمكن أن تحدث فيه مثل تلك الليلة الممطرة -وهو ما يعني أيَّ وقت في أشهر الشتاء أو الربيع- ثم يُحدِّدُون لذلك تاريخًا بصورة عشوائية. أما سليمان نفسه فلم يهتمَّ بالمرور بمثل هذا العملية من التذكُّر. فقد حصل على تاريخ ميلاد محدد، وذلك بحصوله على بطاقة شخصية ذات رقم متسلسل، حين

التَّحَقَّ بالعمل في شركة كاليفورنيا ستاندرد العربية للنفط في أواخر الثلاثينيات. وكانت سياسة الشركة تُوجب أن يكون لكل واحد من العاملين فيها تاريخُ ميلادٍ محدّد، لذلك كتب لجدّته يطلب منها أن تبدأ عمليةَ تذكُّر تاريخ الميلاد المعهودة. وأجابته عن ذلك بتحديد تاريخ ميلاده بالتقويم الهجري، ثم أعطى سليمان هذا التاريخ لموظف الشركة الذي قارن هذا التاريخ بالتاريخ الميلادي. وحدد الموظف ذلك التاريخ بأنه يوافق الخامس من نوفمبر ١٩١٨.

وقد استعمل سليمان هذا التاريخ منذ ذلك الحين عند تعبئته للوثائق، ووضعه تاريخاً لميلاده في شهاداته الدراسية، لكنه لم يَقتنع به أبداً. فهو يَعتقد أنه ولد بعد ١٩١٨ بسنتين أو ثلاث، والسبب الرئيس لاعتقاده هذا أنه حين التحق بالمدرسة في البحرين وَجَد أن الطلاب الذين كانوا يَبْدُونَ في مثْل سنِّه من حيث المظهر الجسماني والسلوكي وَضَعُوا تواريخَ ولاداتهم في سنوات تالية لتاريخ ميلاده.

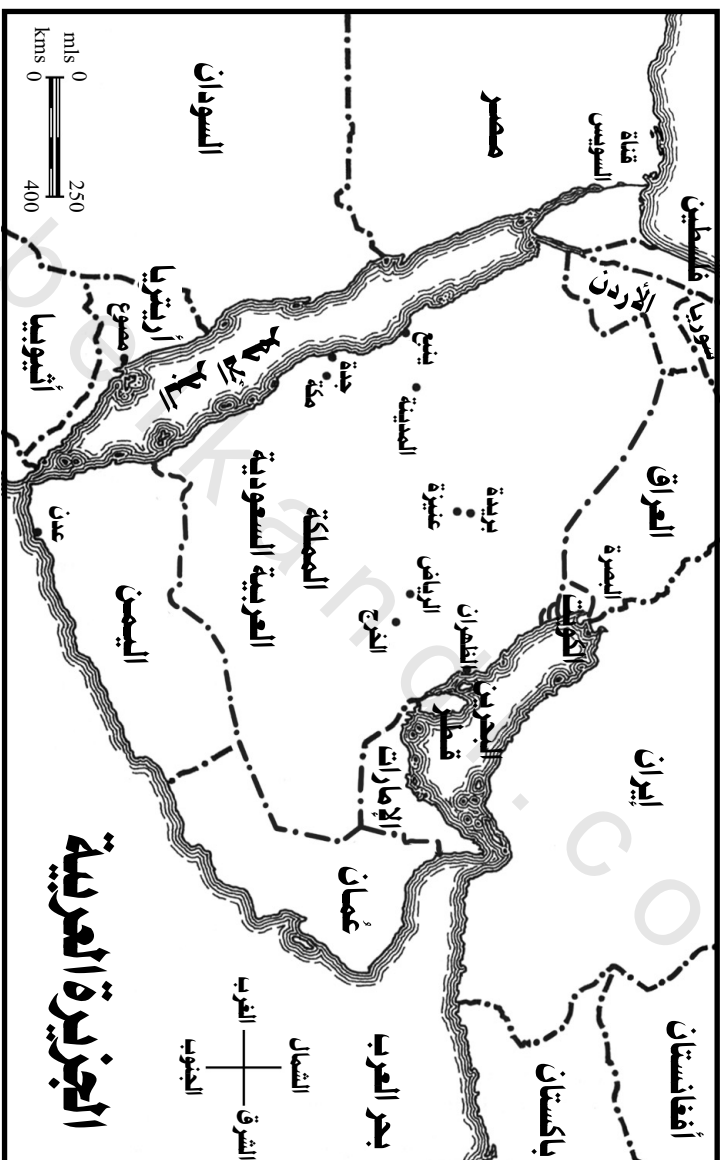
وهناك سبب وجيه للظن بأن تاريخ ميلاد سليمان متأخّر عن التاريخ المذكور. فهو يَتذكَّر أنه حُمِلَ على جَمَل أخيه في "الخَرْج"، حين سافر معه إلى البحرين، وكان ذلك في أواخر العشرينيات وهو يَظُن أنه كان في السادسة أو الثامنة من عمره حينذاك. ولا مشاحة في أنه كان طفلاً صغيراً، ونحيفاً آنذاك،

لكن لو كان عمره عشر سنوات لركب على "الكور"^(١). وقد روى لي بعض الذين عرفوه في الثلاثينيات والأربعينيات أنه كان يبدو أصغر سنًا حينذاك مما يوحي به تاريخ ميلاده الرسمي.

ومن المؤكد أن سليمان يودُّ أن يعرف تاريخ ميلاده الحقيقي. فقد كانت إحدى المهمات الأولى التي كلف بها أحد موظفيه أن يتبين إن كان من الممكن العثور على تاريخ أدق لميلاده من خلال تقصي بعض النُفث الغربية من الأدلة الظرفية في السنوات الأولى من حياته ومن خلال ما يمكن جمعه من ذكريات بعض أقاربه. ولمساعدته في إنجاز ذلك أعطاه كتابًا يتضمن طريقة لتحويل التاريخ الميلادي إلى التاريخ الهجري. وقد أعطاني الكتاب نفسه حين بدأتُ العمل في جمع مادة هذا الكتاب. لكننا لم نستطع، لا أنا ولا هذا الموظف، أن نعثّر على دليل جديد. ثم استقر رأيي على قبول اعتقاد سليمان بأنه ولد بعد سنة ١٩١٨ بقليل.

وقد عملَ عدمُ تحديد تاريخ دقيق لميلاده لصالحه أحيانًا. ففي سنة ١٩٨٨، وكان في السبعين من عمره رسميًا، وصل السن التي يُفترض عندها أن يتقاعد من عضوية المجلس الاستشاري الدولي لبنك مورجان جارانت، لكنه كان يستمتع بالعمل الذي كان يؤديه في ذلك المنصب ولم يجد مشقة في إقناع البنك بأن من حقه أن يستمر في العمل لسنتين أخريين.





وكانت عنيزة، التي وُلد فيها سليمان، مدينةً مُسَوَّرةً آنذاك وتقع شمال غرب الرياض وعلى بُعد ١٥٠ ميلاً عنها. وكانت تتألف من مجموعة من البيوت الطينية ويتراوح عدد سكانها بين ١٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠ نسمة. وكانت حياة الناس فيها بسيطة -فإذا مَلَكَ رجل مزرعةً صغيرةً فيها عدد قليل من النَّخْل، وبئر وعدد قليل من الغنم، عدَّ نفسه من الأغنياء- ومع هذا فقد كانت عنيزة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من أكثر المدن النجدية سكاناً ومن أكثرها ثراءً. وتقع عنيزة على الضفة الجنوبية لوادي الرُّمة، وهو أهم وادٍ في هذه المنطقة وكان طريقاً يَسْلُكه الحجاج القادمون من إيران وجنوب العراق. وكثيراً ما كان هؤلاء الحجاج يتوقفون فيها طلباً للراحة ثم يشتغل كثير منهم بشيء من التجارة أثناء إقامتهم فيها: إذ كانوا يبيعون فيها البضائع المصنَّعة التي حَمَلوها معهم^(٢) وربما اشتروا منها بعض الأغنام والإبل في طريق عودتهم إلى بلدانهم. وأسهم هذا في جعل عنيزة السوقَ النجدية الرئيسة. يضاف إلى ذلك أن اتصالها بالأجانب ربما كان السببَ في اشتهاها بالتسامح وكرم الضيافة والتحضر النَّسبي. وقد اشتهرت عنيزة بهذه الخصائص في القرن التاسع عشر، وما زالت تتحلى بها إلى الوقت الحاضر.

وكانت أول مدينة نجدية تُدرَّس في مدارسها المواد العصرية غير الدينية، وذلك بعد ولادة سليمان بقليل. فلم

يَقْتَصِرُ عددٌ قليل من المدارس فيها على تدريس القرآن الكريم والكتابة، بل أخذت كذلك في تدريس الأدب العربي والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والحساب. وكان يدير هذه المدارس ويُدرّس فيها مدرسون من البصرة أو الزُّبَيْر (وهي قرية يسكنها النجديون في ما أصبح يُعرف بعد ذلك بجنوب العراق). ويروي الدكتور عبدالعزيز الخويطر، الذي تعود أصوله إلى عنيزة وأصبح بعد سنين طويلة من ذلك التاريخ وزيراً للمعارف، أن الطلاب كانوا فخورين جداً وسعداء بأن يتعلموا في هذه المدارس حتى إنهم كانوا يَسْكُبُونَ الحَبَّ على ملابسهم لتُعرف عنيزة كلها بأنهم يَدْرُسُونَ فيها.

وطورت عنيزةُ بعضَ العلاقات التجارية المهمة مع العالم خارج نجد. فقد كان تُجَارُها يسافرون في أغلب الأحيان إلى منطقة الخليج العربي -أي إلى البحرين والكويت والبصرة- ومن هناك، ذهب بعضُ من ينتمون إلى بعض الأسر التجارية في عنيزة إلى الهند، أي إلى ميناء بومباي. واللافت للنظر أن عدداً من أشهر الأسر التجارية في المملكة العربية السعودية المعاصرة تعود أصولها إلى عنيزة. فبالإضافة إلى أسرة العليان، نجد من بين الأسر التجارية المشهورة التي تحدّرت منها: الجفالي والبسام والزامل والسليمان والخريجي والقاضي والذُّكَيْر والتميمي. وكان التجار من هذه الأسر وغيرهم ممن كانوا

يسافرون إلى الخليج العربي يستوردون الأخشاب والملابس القطنية والأرز والسكر والشاي، وهي البضائع التي تأتي من الهند أساساً. وكانوا يُرسلون هذه البضائع إلى عنيزة عن طريق القوافل وتُدفع أثمانها من مصادر الدُّخْل المتواضعة التي يُحصل عليها من بيع الإبل والأغنام والخيول والسَّمَن.

وكان صالح، والد سليمان، أحدَ تجار عنيزة. وكان رجلاً ذكياً ويتمتع بمكانة مرموقة، وكان يتاجر في التوابل. وقد انتقل قبيل الحرب العالمية الأولى إلى المدينة المنورة يَصحبُه ابنُه حمَد، الذي وُلِدَ في مطلع القرن العشرين تقريباً، وابنتُه حِصَّة. وكانت زوجته الأولى قد توفيت قبل ذلك. وفي المدينة المنورة التي كانت أكبرَ من عنيزة وأكثرَ أهمية، وتتميز بعلاقات تجارية واسعة مع إفريقيا ومصر والشام، كان صالح يتطلَّع إلى تحسين أوضاعه التجارية بأكثر مما كان يستطيعه في نجد. وقد تحققت آماله تلك في أول الأمر. إذ استمر في تجارة التوابل، فكان يستورد القرنفل والهيل والقرْفَة من شرق إفريقيا. وكان يسافر في بعض الأحيان إلى ميناء مُصَوِّع في الحبشة ثم يعود منها عن طريق ميناء رابغ القريب من المدينة المنورة. وأصبح حينذاك صديقاً لابن مبيريك أمير رابغ^(٣).

لكن تجارته خَسِرَتْ نتيجةً للحرب العالمية الأولى. فقد كان الحجاز كُلُّه في بداية الحرب تحت سيطرة الأتراك، لكن الشريف حسين قام في سنة ١٩١٦ بما يسمى بـ "الثورة العربية".

وكانت المدينة المنورة المدينةَ الحجازيةَ الوحيدة التي لم يتمكن الشريفُ من الاستيلاء عليها، لكن قُوَّاته، بقيادة الضابط الإنجليزي لورنس، قَطَعَتِ الطرق التي تَصِلُ المدينة المنورة بالبحر وبالشام. وهو ما أدى إلى نقص المواد الغذائية فيها. وعندها قرر الأتراك في الشهور الأولى من سنة ١٩١٨ طَرْدَ جميع السكان من غير أهل المدينة الأصليين^(٤). ولم يجد صالحُ بُدًّا من الرجوع إلى عنيزة مصحوباً حينذاك بزوجته الثانية "هيا"، وهي ابنة تاجر تعود أصوله إلى عنيزة كان يقيم في المدينة المنورة.

وبدأ صالح في عنيزة تجارةً متواضعة تقوم على استيراد المواد الغذائية؛ ولم يكن يجلبها بنفسه بل كان يشتريها عن طريق أسرة العجاجي التي أسست تجارتها في مدن ساحل الخليج العربي والبحرين. وبعد سنوات قليلة من ذلك وُلِدَ سليمان، وتوفيت أمُّه "هيا" وعمره شهران تقريباً. ثم تزوج صالح مرة أخرى، وبعد ثلاث سنوات وُلِدَ لسليمان أُخت اسمها "منيرة"، ثم ولد أخوه "عبدالله". وتوفي صالح بعد قليل من ولادة عبدالله.

وتولَّت تربيةَ سليمان جدُّته لأمه "نورة"، وكانت ذات شخصية قوية جداً، ويتحدث عنها سليمان دائماً بقدر عظيم من الحب والاحترام. ويتبيَّن من صُور "نورة" المحفوظة إلى الآن أنها ذات وجه صارم، من حيث المظهر والتعبير، ويتميز بذقن قوية وعينين ذكيتين. ويتذكر سليمان أنها كانت حازمة لكنها

كانت حانية أيضاً؛ ومن الواضح أنها كانت تجد متعة في رعاية طفل آخر وهي في منتصف العمر. وكانت تُدَلِّله في بعض الأحيان. وقد رأتها زوجة صالح الثالثة في أحد أيام الشتاء الباردة تُساعد سليمان في لبس جواربه، وهو ما أدخل عليها الفزع. وجعلها ذلك تتنبأ بأنه سيكون حين يكبر "أكسل رجل في العالم".

وظلت الحياة المعيشية في عنيزة قاسية في تلك الفترة. وكان طعام الأسرة يتكون من التمر والحليب والمرقوق والجريش. وربما حالفهم الحظُّ في أحيان قليلة فأكلوا وجبة من الأرز، أما اللحم فلم يكونوا يأكلونه إلا في النادر. وكانوا يفتershون الحُصُر المبسوطة على الأرض. ويتذكر سليمان أنه صحا من نومه ذات ليلة وهو يشعر كأنه يتقلَّب على الشوك، وظن حينها أن سبب ذلك شوكٌ علِقَ بأحذية الناس ونقلوه إلى فراشه. لكنه اكتشف في الصباح أن مصدر الألم لم يكن إلا الجدري. وكان أغلب الناس في نجد في تلك الأيام يصابون بالجدري بطرق مختلفة وبدرجات متفاوتة، وإذا لم يموتوا بسببه فإنهم يكتسبون مناعةً ضده. ويقول سليمان عن الحياة في عنيزة في تلك الفترة: "لقد كانت حياة قاسية، ومن العجيب أننا استطعنا البقاء على قيد الحياة على الرغم من ذلك".



مَرَّتْ الآن سبعون سنةً على مغادرة سليمان عنيزة لكنه لا يزال يتذكر بوضوح أيام طفولته فيها، وهو لا يزال يستعمل، من حين لآخر، بعض الأمثال التي يستعملها أهل عنيزة. ومنها: "مَدْبَرٌ بالدار أَخِيرٌ وأَحْسَنُ من ثمانين حَدَّارٌ"، و"يَخْتَلَفُونَ عند مَرِيطِ البقرة". والمعنى الضمني الثاني لهذا المثل: "قَبْلُ شِرَائِهَا"^(٥). وكان في كل بيت من بيوت القادرين في عنيزة تقريباً بقرة من أجل الحليب والسَّمْن. أما الإبل فلم يكن يُعْنَى بها إلا البدو الذين ظلوا يمثلون الأغلبية من سكان نجد حتى العقود الأولى من القرن العشرين^(٦).

وحين يكتشف سليمان أن بعضَ مالكي الأسهم بالأقلية في شركاته أو الشركات الأخرى ينتهجون أسلوب التهديد ببيع أسهمهم فيها -وربما كانوا يأملون من وراء ذلك أن يبادر أحدُ المديرين الآخرين في تلك الشركات إلى شرائها- فإنه ربما يقول إن هذه الحيلة تذكَّره بـ "قَدْرٌ بَسَامٌ". ويشير هذا المثل إلى ما فَعَلَهُ رجلٌ من أسرة البَسَام في عنيزة كان بحاجة إلى اقتراض بعض المال لكنه أصيب بالإحباط لرفض أفراد أسرته مدَّ يد المساعدة له. لذلك خرج هذا الرجل إلى السوق وهو يحمل على رأسه قَدْرَهُ الذي يَطْبِخ فيه طعامه عازِماً على بيعه في السوق - أو كان يُورِّي بذلك لِيُظَنَّ الناسُ أن هذا ما كان يَقْصِدُه. غير أن هذا التصرفَ أَشْعَرَ بعضَ أقاربه بالخزي من هذا الصنيع-

فمَثَّلُ هذه الأسرة الكريمة لا يمكن أن ترضى عن اضطرار أحد أفرادها إلى بيع قِدْرِهِ الذي يأكل فيه [بسبب الحاجة] لذلك هَبُوا لمساعدته.

تعليقات المترجم:

(١) لا أظن أن كلمتي "الخَرْج" و"الكُور" غريبتان على القارئ، خاصة القراء

السعوديين الذين تزيد أعمارهم عن الأربعين سنة!

لكن لا بأس من تبين معنييهما: فـ "الخَرْج" عبارة عن كَيْسَيْنِ مصنوعين من صوف الغنم موصولين بقطعة من المادة نفسه. ويوضع هذان الكيسان على جانبي الجمل بحيث تكون القطعة التي تصل بينهما على ظهر الجمل. وتُستعملان عادة لحمل أغراض المسافرين. وإن كان يحمل فيهما أحياناً كبار السن والأطفال أثناء السفر. أما "الكور" فيشبه "السَّرَج" الذي يوضع على ظهر الحصان. ويوضع على مقدمة ظهر الجمل ليركب عليه الراكب.

(٢) عبارة المؤلف في ص ٦، السطر الرابع إلى الخامس من أعلى الصفحة هي:

"selling manufactured goods they had bought with them..."

ويبدو أن هناك خطأ مطبعياً؛ إذ يبدو واضحاً من السياق أن الكلمة المقصودة هي brought بدلاً من bought لذلك ترجمتها بما يبدو أنه الصحيح.

(٣) يبدو أن في الأمر لبساً هنا. فقد ورد في الأصل ذِكْر "ينبع"، وابن

مبيريك". لكن يبدو أن المقصود هو مدينة "رايغ"، وأن ابن مبيريك المشار إليه هو حسين بن مبيريك الذي كان أميراً "لرايغ" في تلك الفترة، لا يَنْبَع. وكان أمير قبيلة "زُبَيْد" التي تنتسب إلى قبيلة حَرْب. وظل أبناءه وأحفاده إلى اليوم في أماره القبيلة وأماره مدينة رايغ. لهذا وضعتُ في الترجمة "رايغ" بدلاً من "ينبع"، تبعاً لذلك. ويتوافق هذا مع ما يراه الشيخ سليمان العليان.

(٤) تسمى عملية التهجير القسريّ التي نفّذها والي المدينة المنورة التركي فخري باشا بـ "سَفَرٌ بَرَكٍ". وقد رسمَ صورةً ذلك التهجير القسري العنيف ونتائجَه المدمّرة على أهل المدينة المنورة الأديبُ السعودي الراحل عزيز ضياء رحمه الله في الكتاب الذي نُشر منه الجزآن الأول والثاني ويتضمن سيرة حياته، وعنوانه: "حياتي مع الجوع والحب والحرب" (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، د. ت).

(٥) ويعني المثل الأول أن من يظلّ في بلدِه ويَقْتَصِد في معيشته يستطيع أن يوفر ما يعادل ما يكسبه ثمانون رجلاً يسافرون إلى الخارج لطلب الرزق. وكان أهلُ نجد يطلقون على السفر إلى العراق ومدن ساحل الخليج "المَحْدَار". أما المثل الثاني فيحض على التّأني، وعدم استعجال النتائج.

(٦) وعبارة المؤلف هي:

"who, even at the beginning of this century, made up a minority of the central Arabian population".

ويعني هذا أن البدو كانوا إلى بداية القرن العشرين يمثلون أقلية في نجد. وهذا خلاف الواقع: فقد كانوا يمثلون الأغلبية إلى وقت قريب. لذلك ترجمتها بما يتفق مع ذلك الواقع.